

م3: العقلانية

1- بحث في المفهوم:

إن البحث عن مفهوم العقلانية، يجرنا مباشرة إلى الحديث عن "ارتباطها بالصفة القربية (العقلية) (rational) والجذر الاشتقاقي الذي تشتق منه كلتا الكلمتين هو الاسم اللاتيني (ratio) ومعناه العقل (reason). وهكذا يفهم من كلمة (عقلاني) (rationalist) عموماً الشخص الذي يؤكد قدرات الإنسان العقلية تأكيداً خاصاً ولديه إيمان غير عادي بقيمة العقل والمحاكاة العقلية وأهميتها"¹، وعلى هذا الأساس عرفت العقلانية بوصفها "تلك النظرية التي تحاول إثبات وجود الأفكار في عقل الإنسان قبل أن يستمدّها من التجربة العملية الحياتية، أي أن الإدراك العقلي المجرد سابق على الإدراك العيني المجسد"²، مما يجعل العقل أو المنطق هو مصدر المعرفة ومعيّاراً لاختبارها.

لكن في حقيقة الأمر "ليس أفضل المسالك إلى فهم هذا المصطلح المعقّد هو البدء بالتعريفات الدقيقة، وإنما النظر مفصلاً إلى المحاجات والنظريات الخاصة بالمفكرين الكبار الذين ألفوا التراث العقلاني"³، ما يعني أن السير وراء تلك التعريفات الجاهزة الواردة في المعاجم والموسوعات، لن يسعفنا كثيراً في استنباط المفهوم الشامل لأي مصطلح فلسفي على شاكلة (العقلانية)، بل إن السير وراء ما قدّمه أعلامها من أفكار ومبادئ ومؤلفات

¹ : جون كوتنفهام: العقلانية فلسفة متجددة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، ط1، حلب، سورية، 1997، ص13.

² : نبيل راغب: موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، ط1، الجيزة، مصر، 2003، ص456.

³ : المرجع السابق، ص11.

أطروا بها هذا المذهب أو التيار الفلسفي هو السبيل الأمثل لبلوغ الغاية المنشودة من وراء هذا المسعى.

2- الأصول الكلاسيكية للعقلانية:

لطالما بينت مناهج الكتب المدرسية بأن العقلانية ظاهرة مرتبطة بالقرن السابع عشر، لكن الحقيقة هي أن ما بلغته العقلانية كفلسفة في هذه المرحلة لم يكن وليد اللحظة والعدم، بل إنه جاء كنتيجة حتمية لارتباطها بالتراث اليوناني، الذي لا شك أنه يزخر بمجموعة من الأفكار القيّمة التي يمكن أن نعدّها اللبنة الأساسية للعقلانية، وهو ما يتجلى من خلال جهود رواد الفكر اليوناني، خاصة عند أفلاطون وتلميذه أرسطو.

2-1- أفلاطون:

لقد دفعت جهود أفلاطون الكثير من المفكرين إلى أن يطلقوا عليه لقب "أب العقلانية"، ويتضح توجه أفلاطون الفلسفي – القائم على تمجيد العقل وبالتالي التأسيس للعقلانية – في أول ملاحظة أبدّاها بخصوص المعرفة، حيثّ ميز بين هذه الأخيرة والاعتقاد، ففي الوقت الذي أقرّ أن المعرفة مرتبطة بالحقيقة، صرّح بأن الاعتقاد يحتمل الصحة والخطأ، وهذا ما ينفي أن يكون الاعتقاد مساويا للمعرفة، لذلك كان لزاما على الشخص الذي يمتلك المعرفة أن يقدمّ تعليلا أو تفسيرا يبيّن صحتها.

ولقد أورد أفلاطون في كتابه "الجمهورية" ما يؤكد ما ذهب إليه في هذه المسألة، وذلك من خلال حديثه عن عالم المثل، حيثّ أقرّ أن موضوعات المعرفة التي تمتلك خواصها بطريقة مطلقة تكتسب صفة الخلود والثبات والتمام. وهذا ما يؤكّد أن الأشياء التي نراها يوم والتي ندركها الحواس لا يمكن أن تكون موضوعات مطلقة مادام أننا ندركها بالحواس. فهذه الظواهر أو الموضوعات مجردة كل التجريد، وبالتالي لا يمكن أن تفهم إلا بطريقة عقلية، بمعنى يجب أن ننقل من العالم الحسي إلى عالم المعقولات.

2-2_ أرسطو:

لقد كان أمر البرهنة على ما قدمه أفلاطون للعقلانية أمراً واضحاً، وهذا ما جعل الكثير من المفكرين يعتبرونه مؤسساً للعقلانية، وهو الأمر الذي لن يكون هينا مع تلميذه أرسطو، ذلك أن أرسطو في الوقت الذي كان له جهود معتبرة في التأسيس للعقلانية وتأييد ما ذهب إليه أستاذه أفلاطون، كان أيضاً حسب الكثير من المفكرين مؤسس مذهب معارض للعقلانية وهو التجريبية.

إن مقارنة أرسطو لموضوع البحث الفلسفي، تبدو واضحة، إذ رأى أن البحث الفلسفي يكون بداية بالنظر إلى الأشياء اليومية في الذي يحيط بنا (عكس أفلاطون)، وبهذا فهو "ينكر إمكانية المعرفة الفطرية يصرّ على أن كل مفهوماتنا مستمدة بشكل نهائي من التجربة الحسية...، ويقترح أرسطو في كتابه (في النفس) أن القدرة على الفهم تتطلب تشكيل الصور العقلية، وهذا يتطلب القدرة على الإدراك الحسي¹، ما يعني أن الإدراك الحسي يسبق الإدراك العقلي، وأن الإدراك العقلي يستلزم بداية الإدراك الحسي.

أما عن منزلة العقل عند أرسطو، فإنه ينزله منزلة عالية إذ يرى "أن العقل، بالإضافة إلى إحداثه الوسائل للغايات المرغوب فيها، له دور في تحديد الغايات نفسها"²، وما يؤكد ارتباط أرسطو بأستاذه في النزعة العقلانية رغم اختلاف منهجهما، هو لجوء أرسطو إلى الرؤية الاستنباطية الأفلاطونية في كثير من الحالات أثناء مناقشته للعديد من القضايا المحورية في فكره.

¹ : جون كوتنفهام: العقلانية فلسفة متجددة، ص 38 ص 39.

² : المرجع نفسه، ص 44.

3- العصر الذهبي للعقلانية:

لقد ازدهرت العقلانية بصفة خاصة في القرن السابع عشر، وذلك من خلال جهود ثلّة من المفكرين والفلاسفة، الذين أسسوا من خلال أطروحاتهم ومؤلفاتهم للعقلانية في العصر الحديث.

3-1- رونيي ديكارت (1596-1650)

شكّل ديكارت شخصية الفيلسوف الذي ظهرت من خلال جهوده النقلة النوعية للفلسفة من الكلاسيكية إلى الحداثة، وهذا ليس بسبب ما قدّمه من تعاليم، لكن هذا يرجع إلى تصوّره للبحث الفلسفي، "لقد كان ديكارت يبتكر وحده صورة مدهشة ومغرية إلى درجة كبيرة للمنهج الذي على الفيلسوف أن يتّبعه بحثاً عن الحقيقة"¹، إذ رأى أن الفيلسوف يجب أن يبدأ من اللاشيء (نقطة الصفر) وأن يحرر نفسه من كل التراكمات التي تشكّلت في ماضيه، والوسيلة إلى ذلك هو منهج الشك، ولقد فصلّ ديكارت في الموضوع في كتابه "تأملات في الفلسفة الأولى"، حيث بيّن كيف أن الشك عنده يتجلى في ثلاث عناصر:

— شهادة الحواس مرفوضة، حيث إن الإدراكات الحسيّة تخضع للخطأ والوهم (المعرفة تبني على العقل).

— حدود الحواس، يجب أن ترتبط الحواس بشروط أثناء استخدامه من أجل ضمان نتائجها النهائية.

— الرياضيات والعلم، يمكن الاعتماد على اليقينيّات الاستنباطية للرياضيات.

¹: جون كوتنفهام: العقلانية فلسفة متجددة، ص47.

3-2 بندكتوس دي سبينوزا (1632-1677)

تجلى المنهج الاستنباطي عند سبينوزا بصفة خاصة في كتابه "الأخلاقيات المبرهن عنها في النظام الهندسي"، حيث قام بالتأسيس لنظام فلسفي كَلِّي موازي لهندسة إقليدس، ولقد كان هدف سبينوزا في هذا الكتاب "هو إعطاء الشرح للخير بالنسبة للإنسان، وفي الأجزاء الأخيرة من العمل نجد شرحا مفصلا للعواطف والانفعالات الإنسانية ولطبيعة الحرية. ولكن الجزء الأول الأشهر من العمل ينشئ نظرية ميتافيزيقية في الكون من المبادئ الأولى، بدءا بما يراه سبينوزا الفكرة الأساسية، وهي فكرة (الجوهر)"¹.

يقر سبينوزا بوجود "جوهر واحد، ذلك أنه كينونة مكتفية بذاتها وهي علة وجودها...، لكن تفسير الجوهر وفهمه هو — عند سبينوزا — تصويره من ناحية خواصه الأساسية أو الضرورية"²، لكن سبينوزا يؤكد في النهاية أنه مهما اختلفت الظواهر، فإنها في النهاية مظاهر للجوهر الأحد صاحب الإرادة الحرة "الله أو الطبيعة".

3-3 غوتفريد فلهالم لا يينتس (1646-1716)

شغلت فكرة الجوهر أيضا لا يينتس كما شغلت سابقه، لكننا نجده يعود إلى الرؤية الأرسطية القائلة بأنه لا يوجد تعدد في الجوهر. ولقد قسّم لا يينتس كل القضايا إلى صنفين، وهما "(حقائق العقل) (vérité de raison) و(حقائق الواقع) (vérité de fait)، ويقصد بحقائق العقل الحقائق الضرورية التي يستحيل وجود نقيضها، بينما حقائق الواقع محتملة ونقيضها ممكن"³.

¹ : المرجع نفسه، ص60.

² : المرجع نفسه ص60 ص61.

³ : ينظر، المرجع نفسه ص71.